اتجاهات الأدب وأهم حواضره

فى العصر العباسى (١)

بقلم محمود البشبيشى

المدرس بدار العلوم

٣

اشتمل المقال الثانى على أهم الحواضر الأدبية فى القسم الشرقى من الدولة العباسية ، ونريد الآن أن نعرض لأشهر الحواضر فى القسم الغربى منها ، وبذلك يتم موضوعنا ، فيتم به ما أردنا من تتبع الحركات الأدبية شرقا وغربا طوال العصر العباسى ، وعقد الصلات الوثيقة بين الظواهر السياسية والأدبية .

وبعد فإن أشهر الحواضر الأدبية فى غربى العراق ما يأتى : —

١ — مدينة (حلب) عاصمة الدولة الحمدانية التى قامت بحلب والموصل (من عام ٣١٧ هـ إلى عام ٣٩٤ هـ) وحسبك فى بيان مكانة هذه الحاضرة أن يكون من أمرائها (سيف الدولة بن حمدان التغلبى) . ذلك الأمير الذى لم تشغله أعباء الملك وأهوال الحروب عن أمر الأدب ورعاية العلماء ؛ فجمع حوله أفئدة العلماء والشعراء ، بما أسبغ عليهم من نعم ، وما تجمّل به من أدب ، وما عرف به من نقد الشعر ، والإجازة عليه ، حتى قيل إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من الشعراء ، ولا غرو فقد نشأ فى بيئة عربية خالصة ، وأخذ عن فحول العلماء كابن خالويه النحوى ، وطالت مخالطته لهم ، فازداد بالعلم والأدب بصراً ومعرفة .

---

(١) راجع المقالين الأول والثانى فى العددين الأول والثانى من السنة الثانية من « صحيفة دار العلوم »

من أجل ذلك كثرت جمهرة الأدباء والعلماء الحافين من حوله ، فتزاحموا على بابه ، وتنافسوا ، بل تحاسدوا فى القرب منه ، والحظوة عنده ، وما حصل بين المتنبي وابن خالويه ذائعٌ مستفيض .

كان (سيف الدولة) نفسه شاعراً حسن الشعر ، فمن شعره هذه المقطوعة الجيدة فى وصف مجلس الشراب وقوس قزح : —

وســـاق صبيح للصبوح دعوته فقـــام وفى أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم فمن بين منقض علينـــا ومنفض
وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفاً على الجو دُكناً والحواشى على الأرض
يطرزهـــا قوس السحاب بأصفرٍ على أخضرٍ فى أحمرٍ تحت مبيض
كأذيال خَوْدٍ أقبلت فى غـــلائلٍ مصبغة والبعض أقصر من بعض

ولقد أعجب (الثعالبى) فى اليتيمة بهذه الأبيات فوصفها بأنها من التشبيهات الملوكية التى لا يكاد يحضر مثلها السوقه ، على أن من الإنصاف أن نقول إن بعض الرواة ينسبها إلى (ابن الرومى)

ومما يدل على اهتمامه بالنقد ماروواه صاحب اليتيمة من أنه استنشد « أبا الطيب المتنبى » قصيدته التى أولها :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

فلما بلغ (المتنبى) قوله : —

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمَى هزيمةً ووجهك وضاح وثغرك باسم

قال (سيف الدولة) قد انتقدنا عليك هذين البيتين كما انتقد على « امرىء القيس » بيتاه : —

كأنى لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لخيلى : كُرى كرةً بعد إجفال

وبيتاك لا يلتئم شطراهما كما ليس يلتئم شطرا هذين البيتين وكان ينبغى لامرىء القيس أن يقول :

كأنى لم أركب جوادا ولم أقل لخيلىَ كرى كرة بعد إجفـــال
ولم أسبأ الزق الروى للـــذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولك أن تقول : —

وقفت وما فى الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمـــة كأنك فى جفن الردى وهو نائم

فقال (أبو الطيب) : أيد الله مولانا ؛ وإن صح أن الذى استدرك على امرىء القيس هذا كان أعلم بالشعر منه فقد أخطأ « امرؤ القيس » وأخطأتُ أنا ، ومولانا يعلم أن الثوب لا يعرفه البزّاز معرفة الحائك ؛ لأن البزاز يعرفه جملة ، والحائك يعرف جملته وتفاريقه . . . وإنما قرن امرؤ القيس لذة الركوب للصيد بلذة النساء ، وقرن السماحة فى شراء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء ، وأنا لما ذكرت الموت فى أول البيت أتبعته بذكر الردى وهو الموت ليجانسه ، ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً ، وعينه من أن تكون باكية قلت (ووجهك وضاح وثغرك باسم) لأجمع بين الأضداد فى المعنى وإن لم يتسع اللفظ لجميعها ، فأعجب « سيف الدولة » بقوله ، ووصله بخمسين ديناراً من دنانير الصلات(١) .

ومهما تكن قيمة هذا النقد فإنه دليل على شدة عناية « سيف الدولة » بالأدب وأهله ، كما أن إعجابه برد « أبى الطيب » دليل على نبالة قصده ، ورجاحة عقله ، وسعة حلمه ، وأنه أريحى النفس ، لا تصرفه عظمة الملك عن الحقيقة .

وعلى الجملة كانت (حلب) أيام سيف الدولة مهبط الأدباء ، وقبلة العلماء ، فكان ينزلها من الشعراء أبو الطيب المتنبى ، وأبو فراس الحمدانى ، وأبو الفرج البيغاء ، وكشاجم ، والخالديان : أبو بكر وأبو عثمان ، ومن العلماء أبو عبد الله الحسن بن خالويه النحوى ، وأبو الفتح عثمان بن جنى صاحب (الخصائص)

(١) كان لسيف الدولة دنانير أعدها للصلات ، فى كل منها عشرة مثاقيل وعليها اسمه وصورته (يتيمة الدهر الجزء الأول)

فى فقه اللغة . إلى غير أولئك من شعراء حلب والشام والموصل ، وفى (يتيمة الدهر) مختارات من أجود الشعر لهؤلاء الشعراء وغيرهم من شعراء (سيف الدولة) ، فحسبنا من شأن (حلب) ما تقدم .

٢ — ومن تلك الحواضر مدينة (القاهرة) التى حَنَتْ على الأدب حنوا شديدا ، وأصبحت على عهد الفواطم كعبة العلماء ، ومقصد الأدباء ، تهوى إليها جموعهم من أطراف البلاد المصرية وغيرها ؛ وهم ما بين عالم وطالب علم فتوسع لهم القاهرة صدرها ، وتغدق عليهم برها ، وقد زاد فى مجدها وأعلى من ذكرها ، وجود (الجامع الأزهر الشريف) الذى أسس مع القاهرة لعهد الفواطم (عام ٣٥٩ هـ) فما لبث أن ضم بين جوانبه أفواجاً من أئمة الفقه والأدب ، على إختلاف أجناسهم وبلدانهم ، وغدا عاملا من أهم العوامل على نشر العلوم اللسانية والدينية ، وأصبح ملاذاً رحبا للآداب العربية ورجالها الذين نزحوا إلى مصر من الشرق والغرب ؛ وساعد على نباهة شأن (القاهرة) ماوجد فيها من (مكتبات) علمية حافلة عامة كمكتبة (الحاكم بأمر الله الفاطمى) وما انبث فيها من مدارس كثيرة غنية بالعلماء ، موطأة الأكناف للطلاب .

ويطول بنا المقال إذا حاولنا استقصاء ما للقاهرة من آثار خوالد فى جنبات العلم والأدب ، ولكن لابد لنا أن نعرض دُرَرًا يسيرة من كلام شعرائها فى ذلك العهد ، أولئك الشعراء الذين نشئوا فى أرض مصر ، أو نزلوا بها وتكملوا فى معاهدها ، واتخذوها مستقرا ومقاما ، فجاء شعرهم على كثرته رائع اللفظ ، حسن الديباجة ، رقيق الحواشى ، وانطبعت فيه صورة مصر والنيل السعيد .

وإنا لنكتفى فى هذا المقام بالشعراء : تميم بن المعز المتوفى عام ٣٧٤ هـ ، وابن قلاقس اللخمى المصرى المتوفى عام ٥٦٥ هـ وابن النبيه المتوفى عام ٦١٩ هـ وابن مطروح المتوفى عام ٦٤٩ هـ والبهاء زهير المتوفى عام ٦٥٦ هـ وكلهم (ما عدا الأول) نشئوا قريبا من سقوط بغداد ، أى فى زمن اضمحلال الأدب بوجه عام ، ومع ذلك ترى فى شعرهم رقة وانسجاما ، وتعرف فيه الجزالة والقوة والبراعة ؛ وتلك صفات لايكاد يخلو منها فى ذلك العهد شاعر مصرى

فمن قول تميم بن المعز يصف فوارة ، وفيه من دقة الوصف مافيه : —

وقاذفة بالمـــاء فى وسط بركة ... قدالتحفت ظلامن الأيك سجسجا
إذا انبعثت بالماء سلته مُنصُلا ... وعاد عليها ذلك النصل هودجا
تحاول إدراك النجوم بقذفها ... كأن لها قلبا على الجو مُحرجا

ومن شعر (ابن قلاقس) الملقب بالقاضى الأعز يصف غروب الشمس فوق نهر النيل : —

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة ... واعجب لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وأبدت شعاعا منه يخلفها ... كأنما احترقت بالماء فى الغرق !
وللهلال ؛ فهـــل وافى لينقذها ... فى إثرها زورقا قدصيغ من وَرِق؟

ومظهر الإبداع والروعة فى بيته الثانى ، أما تشبيه الهلال بزورق من فضة فقد سبق به (ابنُ المعتز) .

ومن كلام (ابن النَّبيه) فى الرثاء : —

لا تصلح الأرواح إلا إذا ... سرى إلى الأجساد هذا الفساد
أرغمت يا موت أنوف القنا ... ودست أعناق السيوف الحداد

وفى البيت الأول معنى فلسفى عجيب .

ومن قوله تلك القصيدة المشهورة التى يُتغنى بها الآن ومطلعها : —

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيّعا ... ملك الفؤادَ فما عسى أن أصنعا ؟

ومنه فى الوصف والغزل الرقيق : —

من سحر عينيك الأمانَ الأمانَ ... قتلت رب السيف والطيلسان
أسمر كالرمح له مقـــلة ... لو لم تكن كحلاء كانت سنان
يزداد ، إن أشكُ له ، قسوة ... ولو شكوت الحب للصخر لان
ساقٍ سقَا رضوان عن حفظه ... فقر من جمـــلة حور الجنان
بدر ، وكأس الراح شمس الضحا ... لله ما أســـعدَ هذا القران

ومن كلام (ابن مطروح) فى الغزل :

وما أنس لاأنس المليحة إذ بدت دُجًى ، فأضاء الأفق من كل موضع
فحدثت نفسى أنها الشمس أشرقت وأنى قد أوتيت آية (يوشع)

وأما شعر (البهاء زهير) فشائع مأثور ، على أننا نروى له المقطوعة الآتية ، وقد قالها فى الحنين إلى مصر وهو بعيد عنها فى بلاد الشام :

سقى واديا بين العريش فبرقة من الغيث هطّال الشآبيب هتّانُ
وحيا النسيم الرطب عنى إذا سرى هنالك أوطانا إذا قيل : أوطان
بلاد متى ما جئتها جئت جنةً لعينك منها كلما شئت رضوانُ
تمثل لى الأشواق أن ترُابَها وحصباءها مسك يفوح وعقيان
فيا ساكنى مصرٍ تُراكم علمتمُ بأنى مالى عنكم الدهرَ سلوان ؟
وما فى فؤادى موضع لسواكم ومن أين فيه ؟ وهو بالشوق ملآن

وهذه المقطوعة وحدها كافية فى الدلالة على رقة طبع (البهاء) وسلامة ذوقه وجزالة لفظه ، ومتانة شعره .

(٣) ومن حواضر الأدب مدينة (قوص) فى صعيد مصر ؛ روى (ياقوت الحموى) فى معجم البلدان أنها كانت كثيرة الأسواق ، ومحط الرحال ، وملتقى الحجاج ؛ إذ كانوا يسافرون منها إلى (القصير) ثم إلى الحجاز ، وإليها يعودون من الحج ، وكانت أعظم مدن الصعيد وقتئذ ، تنزل بها القوافل الواردة من بحر الهند والحبشة واليمن والحجاز ، وفيها كثير من الفنادق ، وبها كثير من أرباب الصناعات والفنون والتجار والعلماء ، بدأت فى ذلك العمران فى نهاية القرن الرابع الهجرى ، وكان بها ست مدارس (كما كان بإسنا مدرستان وبالأقصر مدرسة) وصارت بمافيها من المدارس ومن نزل بها من العلماء منبع العلم ومستزاد الأدباء ، وعرفت مدارسها على وجه خاص بدراسة الحديث الشريف ، وفيها تخرج كثير من الأدباء كالبهاء زهير وابن مطروح ، وقد دامت لها هذه المنزلة دهرا طويلا ، وكان من أجلاء شيوخها الإمام الكبير (تقى الدين محمد بن الشيخ

محب الدين القشيرى) الذى انتهت إليه رياسة العلم فى زمنه ، وأصبح مقدماً فى معرفة علل الحديث ، منفردا بهذا العلم ، بارعاً فى العلوم النقلية والعقلية ، وهو صاحب كتاب (الامام) فى الحديث ، وشرح كتاب (العمدة) لابن رشيق القيراونى ، وشرح (العنوان) فى أصول الفقه ، وله مع ذلك شعر حسن ، ولما مات (عام ٧٠٢ هـ) رثاه (الشريف محمد بن محمد بن عيسى القوصى) بقصيدة منها:

سيطول بعدك فى الطلول وقوفى أروى الثرى من دمعى المذروف

لو كان يقبل فيك حتفُك فدية لفُديت من علمائنا بألوف

(٤) وأما بلاد الأندلس فقد تعددت حواضر الأدب فيها بتعدد ممالكها ، وكثرة أمرائها ، الذين يسمون بملوك الطوائف ، أولئك الذين غلبوا على البلاد وأظهروا أمرهم فيها بعد ضعف الدولة المروانية الثانية ؛ وما أشبه تلك الدويلات بتلك الممالك التى انسلخت من الدولة العباسية فى الشرق والغرب ؛ بتدخل الأتراك فى شؤونها واستبدادهم بخلفائها ، منذ عهد المعتصم ، فقد كانت قرطبة من أجل مراكز الأدب ، ثم انضم إليها (بَطَلْيَوْس) فى عهد دولة (بنى الأفطس) و (طُلَيْطلة) فى عهد دولة (اسماعيل بن ذى النون) و (سَرَقُسْطه) فى عهد دولة (بنى هود) و (أشبيلية) فى عهد (آل عباد) . و (بلنسيه) فى عهد (لمنصور المعافرى) .

وكما كان التنافس شديدا فى الشرق بين الممالك الناشئة ، كان على أشده بين أمراء ملوك الطوائف ، فلا عجب أن صارت بلاد الأندلس كلها وقتاً ما حاضرة ضخمة للعلم والأدب ، ولا غرو أن ينبغ فيها أولئك العلماء الأجلاء ، ذوو الأثر الخالد ، والصيت الذائع فى الشرق والغرب .

فمنهم الإمام (على بن احمد بن حزم الظاهرى) الفيلسوف المتوفى عام ٤٥٦ هـ وهو صاحب كتاب (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) وغيره من المؤلفات القيمة.

والإمام اللغوى البارع (أبو الحسن على بن اسماعيل) المعروف (بابن سيده) المتوفى (عام ٤٥٨ هـ) وحسبه أن يكون صاحب (المخصص) فى فقه اللغة ، وهو أمتع كتاب فى هذا الباب .

والامام الفيلسوف (القاضي أبو الوليد محمد بن احمد بن رشد) القرطبي شيخ فلاسفة الأندلس ، المتوفى عام (٥٩٥ هـ) وهو علم من أعلام الفلسفة ؛ بل هو وارث (أرسطو) وشارح فلسفته . وله من المؤلفات كتاب (فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) ، وكتاب (تهافت التهافت) فى الرد على كتاب (تهافت الفلاسفة) للغزالى .

والامام النحوى الجليل (أبو عبد الله محمد جمال الدين الطائى الشافعى الجيانى) المتوفى بدمشق عام (٦٧٢ هـ) ، وقد نزح إلى المشرق بعد أن تلقى العلم (بجيان) على (أبى على الشلوبين وثابت ابن حيان) واستوطن دمشق ، وكان إماما فى النحو والصرف والقراءات وعللها ، وهو صاحب الألفية والكافية والتسهيل ولامية الأفعال . وهى من المراجع الموثوق بها فى علمى النحو والصرف .

ولا بأس أن أورد هنا بعض ما قيل فيه من المراثى ، تبيانا لمكانته فحسب ؛ وسيرى القارىء فيه لونا من التكلف لا يخلو من طرافة . قال (شرف الدين الحصنى) فى رثائه :

يا شتات الأسماء والأفعال بعد موت بن مالك المفضال
وانحراف الحروف من بعد ضبط منه فى الانفصال والإتصال
مصدرا كان للعلوم بإذن الله (م) من غير شبهة ومحال
ألم قد عراه أسكن منه حركات كانت بغير اعتلال
صرفوه يا عظم ما فعلوه وهو عدل معرف بالجمال
يا لسان الأعراب يا جامع الإعراب (م) يا مفهما لكل مقال
يا فريد الزمان فى النظم والنثر (م) وفى نقل مسندات العوالى
كم علوم بثثتها فى أناس علموا ما بثثت عنه الزوال

وهذه الأبيات من قصيدة كلها على هذا النحو ومع ذلك يقول (الصلاح الصفدى) (١) : ما رأيت مرثية فى نحوى أحسن من هذه !!

---

(١) راجع (بغية الوعاة) فى أخبار النحاة للسيوطى

وبعد فإن استقصاء أعلام الأدب فى الأندلس يحتاج إلى وقت طويل ، وبحث خاص ، وحسبنا الآن من شمسه المشرقة ذلك القبس المتألق ، وعلى الجملة كانت الأندلس تفيض بالعلم والعلماء ، وقد نزح كثير منهم بعد اضمحلال شأن العرب هنالك إلى القيروان ومصر والشام واتخذوها مستقرا ومقاما . فساعدوا على صون اللغة وضبطها .

ولقد كان للتنافس بين الشرق والغرب من جهة ، وبين ملوك الطوائف من جهة أخرى أكبر الأثر فى تلك النهضة العلمية ، التى انتجت هذه الثروة العلمية الأدبية الضخمة . ولقد كانت الأندلس سباقة فى نشر الثقافة ببلاد أوربا ، فقد قصد أهل أوربا مدارس قرطبة وأشبيلية وطليطلة ، وتلقوا العلوم على علمائها ، ونقلوا إلى اللاتينية الفلسفة اليونانية ومؤلفات ابن سينا والرازى والمجسطى ، لبطليموس فى الرياضة السماوية وقد كثرت مكتبات الأندلس الحافلة ومدارسها المختلفة فى القرن الخامس . وقد حققوا أنه كان بالأندلس سبعون مكتبة عامة بها مواضع خاصة للنقل والمطالعة والترجمة ، ولقد أحرق أهل اسبانيا معظم هذه المكتبات : والذى يرى فى مكتبة (الاسكوريال) الآن بالأندلس إنما هو صبابة من ذلك الحضم الهائل ، أبقى عليها الأسبانيون ونقلوها إلى مكتبتهم لما أفاقوا من غشيتهم ، وثابوا إلى رشدهم ، وهدأت فيهم سورة القمع ، وأشبعوا شهوة الانتقام .

وسيذكر المنصفون من علماء الغرب كيف أشرقت عليهم شموس المعارف من هاتيك البلاد . ويحسن فى هذا المقام أن أثبت عبارات نقلها الأساتذة الأجلاء مؤلفو (أدبيات اللغة العربية) عن مجلة المقتطف (المجلد الثالث رقم ٧) ونصها :—

« ليقل لنا أهل أسبانيا أين الثمانون الف كتاب التى أمر كردينالهم (شمنز) بحرقها فى ساحات (غرناطة) بعيد استظهارهم عليها فأحرقوها وهم لا يعلمون ما يعملون ، حتى أفتوا على ما قال مؤرخهم (رَبلس) ألف ألف وخمسة آلاف مجلد !! كلها خطتها أقلام العرب ! وليتهم يخبروننا كم من كتاب لعبت به نيرانهم بعد ذلك ؟ حتى لم يبقوا من معارف العرب ولم يذروا ؛ وما يقولون عن السفن الثلاث التى ظفروا بها مشحونة بالمجلدات العربية الضخمة وطالبة ديار سلطان

مراكش فسلبوها وألقوا كتبها فى قصر (الاسكوريال) سنة ١٦٧١ م (١٠٨٢هـ) حتى لعبت بها النيران فأكلت ثلاثة أرباعها ولم يستخلصوا منها إلا الربع الاخير حينما استفاقوا من غفلتهم ، وعلموا كبر جهالتهم ، ففوضوا إلى ميخائيل القصيرى الطرابلسى المارونى ترتيبها وكتابة أسمائها ، فكتب لهم ١٨٥١ كتابا منها ، فعلى ما فى هذه الكتب - وما بقى فى افريقية والمشرق - قصر أهل هذه الايام معارف العرب ، وحتى هذه لم يستوعبوا جميع ما فيها .

واليك ما نقله أولئك الأساتذة الأجلاء عن مجلة المقتطف (المجلد الثالث وجه ٩١ ، ٩٢) : —

« فى القرون الوسطى قصد أهل أوربا مدارس الأندلسيين ، وكانت على غاية الاتقان ، وقرءوا العلم فيها ثم تزودوه منها إلى بلادهم ؛ ففى سنة ٨٧٣ م أمر (هرتموت) رئيس دير (مارى غالن) جماعة من رهبانه بدرس اللغة العربية لتحصيل معارفها ، وكان الرهبان البندكتيون يطلبون العلوم العربية بشوق لامزيد عليه ، وأشهر من تعلم العلم من العرب البابا (سلفستر الثانى) . . . دبت قدمه فى أرض الأندلس فرتع فى مدارس أشبيلية وقرطبة وصرف الى العلوم رغبته ، فلما ساغها هنيئا عاد إلى دياره وما زال يسمو على أقرانه حتى تنصب (بابا) فشاد للعلم مدرستين الأولى فى إيطاليا والثانية فى (ريمز) ، وأدخل إلى أوربا معارف العرب والأرقام الهندية التى نقلها عنهم ، ثم ثارت الحمية فى أهل إيطاليا وفرنسا وجرمانيا وانجلترا ؛ فطلبوا الأندلس من كل فج عميق ، وتناولوا المعارف من أهلها قال (مونتكلا) فى تاريخ العلوم الرياضية (ولم يقم من الأفرنج عالم بالرياضيات إلا كان علمه من العرب مدة قرون عديدة) فمن جملة من نقل عنهم المعارف من أهل إيطاليا (دوكريمونا) ، قرأ علم الهيئة والطب ، والفلسفة (بطليطلة) ، وترجم عنهم (المجسطى) ، وكتب الرازى والشيخ الرئيس إلى اللاتينية ، و(ليوندر ألبيزى) نقل عنهم الحساب والجبر ، و (أرنولد الفيلانوفى) نقل عنهم الهيئة والطبيعيات والطب » .

ثم ينقل الأساتذة الأجلاء أصحاب (أديبات اللغة العربية) عن جريدة مدرسة ادنبرج الكلية هذه العبارة :

« انا لمدينون للعرب كثيرا ، ولو قال غيرنا خلاف ذلك : فأنهم الحلقة التى وصلت مدنية أوربا قديما بمدنيتها حديثا ، وبنجاحهم وسمو همتهم ، تحرك أهل أوربا إلى إحراز المعارف ، واستفاقوا من نومهم العميق فى العصور المظلمة ، ونحن لهم مدينون أيضا ، بترقية العلوم الطبيعية ، والفنون الصادقة النافعة ، وكثير من المصنوعات والمخترعات التى نفعت اوربا كثيرا علما ومدنية » .

٥٥٥

بقى أن ألم إلمامة سريعة بحاضرتين من حواضر الأدب العربى ، كان لهما من وفرة الأدباء شأن لا يستهان به ، أعنى بهما (القيروان) و (صقلية) :

أما القيروان فقد نبه ذكرها بكثير من الشعراء :

فمنهم (ابن شرف القيروانى) المتوفى سنة ٤٦٠ هـ بالمرية من بلاد الأندلس ، وهو الذى يقول (وكان مغرما بالمحسنات البديعة) :

إن ترمك الغربة فى معشر ... قد أجمع الناس على بغضهم
فدارهم مادمت فى دارهم ... وأرضهم مادمت فى أرضهم

ويقول فى وصف (عود) :

سقى الله أرضا أنبتت عودك الذى ... زكت منه اغصان وطابت مغارس
تغنى عليه الطير والعود أخضر ... وغنت عليه الغيد والعود يابس

ومنهم (أبو إسحاق ابراهيم بن على الحصرى) المتوفى سنة ٤٥٣ هـ الذى كانت داره منتدى شباب القيروان ، ينشدهم شعره ويتلقون عنه أدبه ، وهو صاحب (زهر الآداب) الذى يعد من أمتع كتب الأدب : لحسن تبويبه وجمال تقسيمه ، وما أودعه من جيد المنظوم والمنثور .

ومنهم (أبو الحسن الحصرى) المتوفى سنة ٤٨٨ هـ ، كان أديبا شاعراً عالماً بالقراءات ، وله تلك القصيدة الذائعة الصيت ، الرقيقة اللفظ والمعنى ، وهى

التى مطلعها : —

ياليل الصب منى غده أطلوع الساعة موعده
رقد السمار فأرقه أسف للبين يردده
فبكاه النجم ورق له مما يرعاه ويرصده

***

يامن حجدت عيناه دمى وعلى خديه تورده
خداك قد اعترفا بدمى فعلام جفونك تجحده ؟

ولروعتها ورقتها عُنى بها الشعراء معارضة واقتباساً ، فمن عارضها المرحوم اسماعيل صبرى باشا بقصيدة منها : —

أقريب من دنف غده فالليل تمرد أسوده
والتفت تحت عجاجته بيض فى الحى تؤيده

وأمير الشعراء المرحوم شوقى بك بقصيدة منها : —

مضناك جفاه مرقده وبكاه ورحتم عوده
حيران القلب معذبه مقروح الجفن مسهده

ومنهم (الحسن بن رشيق القيروانى) وهو أديب فاضل ، وشاعر مجيد ، ومؤلف بارع ، حسبه أن يكون من مؤلفاته كتاب (العمدة) فى صناعة الشعر ونقده . نشأ بالقيروان ، وظل بها حتى خربت ، فارتحل إلى صقلية ، ومات بها سنة ٤٥٦ هـ ، ومن جيد شعره :

فى الناس من لا يرتجى نفعه إلا إذا مس بأضرار
كالعود لا تطمع فى طيبه إلا إذا أحرق بالنار

وقوله : —

ومن حسنات الدهر عندى ليلة من العمر لم تترك لأيامها ذنباً
خلونا بها نَنْفى القذى عن عيوننا بلؤلؤة مملوءة ذهبا سكبا
وملنا لتقبيل الثغور ولثمها كمثل جنوح الطير يلتقط الحبا

وأما (صقلية) فقد كانت حاضرتها (سرقوسة) حافلة بالشعراء الذين امتازوا

بدقة الوصف وبديع الخيال ، ساعدهم على ذلك ما امتازت به جزيرتهم من جمال الطبيعة ، وما فيها من مناظر خلابة ، ومشاهد رائعة جذابة ، ومن شعرائها : —

الشاعر المبدع (عبد الجبار بن حمديس الصقلى) نشأ بصقلية وتثقف فيها ، وظل بها ، حتى سقطت فى يد النرمانديين سنة ٤٧١ هـ فهجرها إلى الأندلس ، واتخذ أشبيلية دارا ، أيام صاحبها المعتمد بن عباد ، ثم رحل إلى إفريقية ومدح الأمير يحيى بن تميم بن المعز الفاطمى ، ثم قصد جزيرة (مَيُرْقة) وعاش فيها حتى أدركه الموت ، سنة ٥٢٧ هـ ومن كلامه :

وليلة حالكة الإزار مدّت جناحا كسواد القار
تحجب عنا غرّة النهار عقرت فيها الهم بالعُقار
بجسم نور فيه روح نار فى مجلس ضم بنى الفخار
كهالة تضحك عن أقمار تزاحمت بأنجم درارى

ومن شعره فى الحنين إلى صقلية : —

ذكرت صقلية والأسى يجدد فى النفس تذكارها
فان كنت أخرجت من جنة فانى أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء حسبت دموعى أنهارها

ومنه فى تعزية آل (عباد) أصحاب أشبيلية عن ملكهم لما نكبهم ملك المغرب يوسف بن تاشفين ، وكانوا غرة فى جبين الزمان :

أتيأس من يوم يناقض أمسه وشهب الدرارى فى البروج تدور؟
ولما رحلتم بالندى فى أكفكم وقلّ رضوى منكم وثبير
رفعت لسانى بالقيامة : قد دنت فهذى الجبال الراسيات تسير

ومن كلامه :

قم هاتها من كف ذات الوشاح فقد نعى الليل بشير الصباح
من قبل أن ترشف شمس الضحى ريقَ الغوادى من ثغور الأقاح

وكان بصقلية كثير من العلماء؛ منهم على بن جعفر السعدى المعروف بابن القطاع، ذو التصانيف الممتعة فى النحو، مثل كتاب (الأفعال) الذى يعد من أحسن الكتب وأنفسها، وكان شاعرا رقيق الشعر، منسجم العبارة ومن كلامه:

ارفق بصب أتى ذليلا قد مزج اليأس بالرجاء
أنهكه فى الهوى التجنى فصار فى رقة الهواء

ومن كلامه أيضا: —

فلا تنفدنّ العمر فى طلب الصبا ولا تشقين يوما بسعدى ولا نعم
ولا تندبن أطلال ميّة باللوى ولا تسجمنّ ماء الشؤون على رسم
فان قضارى المرء إدراك حاجة وتبقى مذمات الأحاديث والاثم

ومن أدباء صقلية وعلمائها الأعلام حجة الدين (محمد بن ظفر الصقلى) صاحب كتاب الينبوع فى تفسير القرآن الكريم، وشارح مقامات الحريرى، ومؤلف كتاب (سلوان المطاع فى عدوان الاتباع) ألفه لبعض قادة الجيش بصقلية، وقد تقلبت به الأحوال حتى أقام بمدينة (حماة) بالشام، ومات بها سنة ٥٦٥ هـ، وله شعر رقيق منه: —

حملتك فى قلبى فهل أنت عالم بأنك محمول وأنت مقيم ؟
ألا إن شخصا فى فؤادى محله وأشتاقه، شخص على كريم

محمود البشبيشى